البـراجمتـ ـزم أو الفلسـ ـفة العمليـ ـة

كان ومازال أغلب الفلاسفة يعتقد أن الحقيقة مستقلة عن ذاتية الإنـسان وأهوائـه وأنا لها كيانا وموضوعيتها، وكانوا يرون أن الفكر منزه عن المادة وان غايتـه التأمـل والاستغراق في هذه الحقيقية وظل ذلك منزع الفلاسفة أو قل منزع أغلبيتهم حتى كانـت هذه الفلسفة التي نريد أن نسرد وجوهها البارزة. فقد هاجمت اطلاقية الحقيقة وأنزلـت التأمل الفلسفي إلى مرتبة الأوهام والأضاليل.

وأول ما استعملت كلمة البراجمتزم في معناها الخاص في مقالة لبيرس وكان يحـاول في هذه المقالة أن يقرر قاعدة عامه للتحقيق من معاني الأفكار التي تمر بأذهاننـا بطريقـه تجريبية فإذا أردت أن تتحقق من معنى فكرة تدبر نتائجها العملية فان تصورك لها هو كل ما تستطيع من تصور لهذه الفكرة أو بعبارة أخرى حقيقية الفكرة هي تـصور نتائجهـا العملية وعلى هذا فيمكن أن نقول أن الفكرة التي ليس لها نتائج عملية لا سبيل أن تصور حقيقتها.

وقد تأثر الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس " 1840 – 1930 " برأي بـيرس هذا ويظهر هذا في تعريفه للحقيقة، ولكي نفهم هذا التعريـف ينبغـي أن نـشير إلى أن البراجمتزم لا تفرق – كما هي العادة بين حقيقة النظرية والعمليات التي توصل إليها، فعند جيمس مثلا توجد الحقيقة في نفس هذه العمليات والنظرية الحقيقة هي الـتي تـؤدى إلى النتائج العملية التي نقرر وجودها والفكرة الحقيقية ليست نسخه من الشيء وكأنا الفكرة التي تنتهي بادراك الشيء إدراكاً مباشراً حسياً وقد عرف جيمس الحقيقة تعريفاً أخر مخالفاً لذلك التعريف وان لم يناقضه أعتبر فيه أن النظرية الحقيقة هي التي تلبى نـداء الحاجـات الإنسانية فالتعريف الأول يلخص الحقيقة في الإدراك الحسي المباشر للشيء وتعتـبر هـذا الإدراك المباشر آخر وجه من وجوه العملية التي يسميها جيمس بالحقيقة، أما التعريـف الثاني فتبدو فيه الحقيقة مستقلة عن كل إدراك، وكلتا النظريتين من صميم الفلسفة العملية لاتما تلعبان الحقيقة للعمل أو الأغراض العملية ويلاحظ إن التعريف الأول يجعل للحقيقة

ذاتية موضوعية من حيث أنه يجعل الحكم الأخير عليها للإدراك المباشر أما التعريف الثاني فيتبعها للحياة والأغراض الحيوية.

وقد يسأل سائل كيف صار جيمس إلى تصور هذين التصورين للحقيقية ؟ والحقيقة أن جيمس بين رجلين درس عليهما فتأثر بكل منهما أو لهما عالم حيوان يدعى اجانز وقد علمه كيف لا يأخذ بالرأي حتى يمتحن بنفسه ويرى ببصره ويفحص بتجربته، ويظهر أثر هذا العلم في جيمس في تعريفه الأول للحقيقة وثانيهما أبوه هنرى جيمس اللاهوتي الذي كان يتأمل حقائق الأمور بمنظار فالخير هو الحقيقي وما ليس خيرا فليس حقيقيا، فهو يتبع الحقيقة لأغراض الخير كما يتبعها جيمس لأغراض الإنسان الحيوية، ولذلك ففلسفة جيمس مزيج من نوعين متناقضين من الفكر نوع تغلب عليه النزعة العلمية التجريبية الباردة ونوع تكتنفه الاعتقادات الحيوية والمثل العاطفية حتى أنه كان يذهب إلى حد القول بإمكان الاتصال بوجدانيات غير مرئية والاستغراق في وجدانان علنا وهو قول جماعة المتصوفة.

إذا ما عسى أن يكون العلم الحقيقي في نظر فيلسوف كجيمس ؟ هو الذي يلبى نداء حاجاتنا والذي نستطيع أن نعيش ونعمل فيه، فهو يطرح جانباً رأى العلماء في الجبر لأنه يقرر للعالم حقيقة ميكانيكية لا دخل لموافقتها لحاجاتنا أو لمخالفتها لها في تكييفها كذلك ينبذ الايديياليزم التي تقول بأن الزمان والمكان من خيالات الرؤوس لأننا في أعمالنا لا نستغني عن الزمان ولا عن المكان. والاعتقاد بأن العالم يمكن تقرير حقيقته تبعاً للحاجة الإنسانية معناه الاعتقاد بوجود قوى مختلفة بالنسبة لأفعالنا بعضها موافق وبعضها مخالف ومن الممكن بداهة اعتبار هذه القوى من ناحيتين واحدة تفاؤلية وأخرى تشاؤمية حسبما نعتبرها معنية لنا أو مقاومة لنا. وكان جيمس يتردد بين التفاؤل والتشاؤم فكان يقول بوجود اله ولكن كان يعتقد بأننا نساعده في عمله كما أنه يساعدنا وكان ينفى القول بان العالم قد دبر أمره من قبل ويؤمن بأنه يسير تبعا، وهو يسير على رأى تبعا، وهو يسير على رأى يوافق منطقه تماماً لأنه لو كان دبر للعالم حقيقة أزلية لما جاز لنا أن تقرر حقيقة له كيفما تستدعى الحاجة. وقد تأثر جيمس بالعالم اجانز فخلص له من ذلك مذهب تجريبي كالمذهب التجريبي الإنجليزي إلا انه يختلف عنه في أن المذهب الإنجليزي يتصور أن

ظاهرات النفس ترتبط ببعضها عن طريق تداعى المعاني أما جيمس فكان لا يؤمن بتداعي المعاني في ربط ظاهرات النفس وكان يقول بأن النفس وحدة مستمرة وينضح رأيه في هذا الكلام عن الشعور في كتابه عن علم النفس، فهو يتصور الشعور وحدة غير مجزأة مستمرة في سيرها كالنهر، وكان لرأيه هذا أثر في تصوره للعالم، فقد أداه عدم إيمانه بالتداعي إلى تصور العالم أجزاء متفرقة غير مرتبطة بسببية أو غيرها، مستعد دائماً للدخول في تكوينات مختلفة كالذرات فحقائق العالم تظل قابلة للتغير المستمر وهذا يوافق رأيه عن الحقيقة.

وقد اشتغل الأستاذ شيلر بأكسفورد بنظرية قريبة من نظرية جيمس هـذه يمكـن عدها من هذه الفلسفة العلمية وهى البشرية وقد رفض الفلسفة التي تؤمن بالحقيقة المطلقة التي تعتبر كل حقيقة جزءاً من كل وأنا مرتبطة بعلائق مع هذا الكل، والحقيقـة عنـده فرديه، فعالمنا اليومي غير عالمنا الطبيعي غير عالمنا البيولوجي وكل هذه حقـائق خلقتـها الحاجات الانسانيه المتنوعة، وهذا كلام لا يتعدى مضمونه كلام جيمس إلا أن شيلر ختم فلسفته بأحلام بشرية سامية.

وممن ساهموا في بناء هذه الفلسفة الفليسوف ديوى وقد ابتدأ بنقد الفلسفة قائلاً أنا تبحث عن وحدة لأجزاء الوجود وهى التي جزأت الوجود إلى أجزاء، وما هي مـسائل الفلسفة ؟ الايديياليزم تمحو العالم المادي وبظنه صورة عقليه ولكن يبقى عليها أن تفـسر لماذا يوجد حس وفكر ولماذا تمحو الروحية والضمير الانسانى ولكنها لا تفسر لماذا نجـد أنفسنا مع هذا الضمير في عالم غير عالم الموجودات وهو عالم المثل والقيم، جميـع هـذه المسائل هي أوهام لا أساس لها نشأت من اعتبار الفكر غاية في نفسه ومن اعتباره تـأملاً والحق أن الفكر وظيفة تجريبية هو ظاهرة حيوية تحدث في الفرد أحياناً لكي يلائـم بـين نفسه وبين الظروف الحاضرة التي تتطلب نشاطه الفكرة فرض سابق للعمـل. والفكـرة الحقيقية هي التي ترشدنا في عملنا، فالذكاء غايته حيوية غايته العمل ولكنه عامل لاغـني عنه وليس تابعاً بسيطا، وهو بذلك يرد للعقل شيئا من سامي مكانته.

والآن نسأل كيف يمكن الموافقة بين هذا التصور للحقيقة وبين الحقيقة العلمية التي لا تتأثر بالأهواء ولا بأي شيء إلا الغرض العلمي الخالص ؟ الحق أن هذه الفلسفة الـتي

تخضع الحقيقة للحاجات المتغيرة أو بمعنى آخر هي رجوع إلى اعتبـار الوجـود بـالعين الانسانيه إلا انه مقلوب في هذه المرة بروح عمل بـا.